© ٢٠١٨ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد ١٠، ع(٢)، ديسمبر، كانون أول ٢٠١٨م، ص١٣٩-١٥٣

صفات الحروف وأثرها في إعجاز القرآن الكريم البياني: سورة الانشراح أنموذجًا(*)

د. عبد الله بن سالم بن حمد الهنائي[١]

(The Characteristics of the Letters in the Rhetorical Inimitability of the Holy Quran: Surah al-Inshirah as a Model)

Abdallah bin S. al-Hinai

ABSTRACT

The purpose of this paper is to highlight the characteristics of some specific letters in the Qur'an, their vocal quality and impacts on the Qur'anic word meanings and their contributions to the inimitability of the Qur'an rhetroric style. To achieved this, the paper adopted an Inductive Analytical Method, focused on four aspects of the letters and their vocal aspects in the Qur'anic recitation art (*Tajweed*, namely: velarization (*isti'lā'*), non-velarization *(istifāl)*, vocalization of voiced consonants *(qalqalah)*, and voice spreading (*tafash-shī*). Also *Sūrat al-'inshirāḥ* was chosen to analyse these aspects. The analysis show that each letter and its vocal characteristics contribute effectively in ensuring additional nuances and rethorical meanings on the Qur'anic words in which they appear. This is culminated with a remarkable harmony and consistency between the vocal, the meanings and the rethorical inimitability of the Quran.

Keywords: *Letter Traits, Rhetorical Inimitability, Surah al-Inshirah, Vocalization.*

(*) This article was submitted on: 14/09/2018 and accepted for publication on: 04/11/2018.

[١] د. أستاذ مساعد، قسم العلوم الإسلامية، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، 20141038@css.edu.om

ملخص

من أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز البياني الذي أجمع العلماء عليه ولا تزال الدراسات تتجدَّد كل يوم حوله، ومما يمكن أن يكون محلا للدراسة تأثير صفات الحروف على الإعجاز البياني، فجاءت هذه الدراسة لتبرز معنى صفات الحروف وأهميتها وجهود العلماء المتقدِّمين والمتأخرين فيها، وركزت الدِّراسة على أهم أربع صفات، اثنتان منها من الصفات المتضادة، وهما الاستعلاء والاستفال واثنتان منها من الصفات غير المتضادة، وهما القلقلة والتفشي؛ لكثرة ورودهما وقوة تأثيرهما، واتبع الباحث المنهج الاستقرائي في الكشف عن جهود العلماء، كما اتَّبع المنهج التَّحليلي في تحليل الأمثلة التطبيقية، وخلص البحث إلى وجود بصمات جليلة لعلمائنا ، حيث أشاروا إلى أهمية صفات الحروف وعلاقتها بالإعجاز البياني. كما خلص البحث إلى الأثر الفعَّال والتناغم العجيب والتَّناسق المطَّرد بين صفات الحروف والإعجاز البياني بتطبيقات عملية.

كلمات دالَّة: إعجاز بياني، سورة الانشراح، صفات الحروف، معاني القرآن.

١– مقدمة: الحروف صفاتها وعلاقتها بالإعجاز القرآني

الصفات: (جمع: صفة)، وهي ما قام بالشيء من المعاني الحسية كالبياض والصفرة والحمرة، أو المعنوية مثل العلم والأدب. (المرصفي، عبد الفتاح. ١٤٢١هـ، ص٧٧). أما في اصطلاح أهل الأداء فقد عرفت الصفات بتعريفات كثيرة من أجودها وأقصرها: "كيفية يوصف بها الحرف عند حصوله في المخرج" (السيلاني، حبيب بن محمد. ١٣٤٧هـ، ص٩–١٠). ومعنى هذا أن مخرج الحرف هو المكان الذي يخرج منه الحرف، أما كيفية خروجه من حيث القوة والضعف ودخول الهواء وانتشاره في الفم وما إلى ذلك فهذا هو ما يطلق عليه صفة الحرف. ويذكر العلماء ثلاث فوائد تحصل لمن يدرس صفات الحروف وهي:

أ– التمييز بين الحروف المشتركة في المخرج، فلولا اختلاف الصفات فيما بينها؛ لكانت حرفاً واحداً فالطاء المهملة لولا انفرادها بالاستعلاء والإطباق والجهر؛ لكانت تاءً؛ لاتفاق الحرفين في المخرج. (المرصفي، مرجع سابق، ص١/٧٧).

ب- تحسين لفظ الحروف؛ إذ إن نطق كل حرف بصفاته كاملة غير منقوصة يجعله أفصح وأتم وأحسن، بخلاف عدم مراعاة ذلك بجعل النطق به غير فصيح. (التونسي، محمد ياالوشة. د.ت، ص٤٢).

ج- معرفة قويِّ الحروف من ضعيفها؛ ليعلم ما يجوز إدغامه وما لا يجوز إذ إن ما له قوة ومزيه على غيره لا يجوز إدغامه في ذلكم الحرف حتى لا تذهب تلكم الصفة القوية. (الحصري، محمود خليل. ١٤٢٣هـ، ص٥٠-٥١).

أمَّا عن صفات الحروف، فيقسمها العلماء إلى قسمين:

صفات لازمة: وهي لا تفارق الحرف في أي حال من الأحوال كالاستعلاء والاستفال والقلقلة وغيرها.

صفات عارضة: وهي الصفات التي تتعرض للحرف في أحيان معينة لسببٍ ما وتزول بزوال ذلك السبب مثل الإدغام والإظهار والقلب والمد والسكت والتفخيم والترقيق.

وأهمُّ تلك الصفات هي اللازمة، وهي التي يقسمها العلماء إلى قسمين اثنين: **صفات لا ضد لها؛** بمعنى أن الحرف إذا اتصف بصفة لا يتصف بضدها، فلو اتصف الحرف بصفة الاستعلاء فإنه لا يتصف بضدها "الاستفال"، وذلك مثل الطاء فإنها لا تتصف بالاستفال أبدًا. **والصفات التي لها ضد:** وهي الجهر وضده الهمس والشدة وضدها الرخاوة وبينهما التوسط والاستعلاء وضده الاستفال والإطباق وضده الانفتاح والإصمات وضده الإذلاق، أما الصفات التي ليس لها ضد فهي الصفات التي يتصف بها الحرف ويتميز بها في أوجه نطقه ولا يلزم أن بقية الحروف لا تتصف بتلكم الصفة غير أن هذه الحروف أو تلك الحروف تكون في أعلى الصفة ولذلك اختيرت عن غيرها (القارئ، الملا علي. ١٤٢٣هـ، ص٩٨-١٠٣). أمَّا الصفات التي ليس لها ضد على المشهور سبع هي: القلقلة والصفير والتفشي والاستطالة واللين والانحراف والتكرار (التونسي، مرجع سابق، ص٤٦؛ وشكري، ص١٣٤).

ولما كانت هذه الصفات كثيرة —كما هو ملاحظ— وبعضها لا دخل له بعلم التجويد كالإصمات والإذلاق فإنَّ الدراسة الحاليَّة تقتصر على أربع صفات: صفتان من الصفات المتضادة هما الاستعلاء والاستفال، وصفتان من الصفات غير المتضادة هما القلقلة والتفشي؛ لكثرة ورودها في القرآن الكريم ولأهميتها في النطق ولما لها من تطبيقات كثيرة لموضوع الدِّراسة الحالية.

أ– الاستعلاء: وهو العلو والارتفاع (الحصري، مصدر سابق، ص٦١)، واصطلاحاً : "ارتفاع أقصى اللسان إلى الحنك العلوي عند النطق بالحرف فيرتفع الصوت معه" (شكري، أحمد. ١٤٣٠هـ، ص١٢٩). ويلاحظ أن هذا التعريف ركز على أهمية استعلاء أقصى اللسان؛ لأنه هو المعتبر والمؤثر دون وسطه وطرفه، وحروف الاستعلاء مجموعة في قولهم "خص ضغط قظ"، (القارئ الملا، مصدر سابق، ص١٠٢)، وهذه هي حروف التفخيم عند جماهير العلماء ومحققيهم فعندما ينطق الناطق بأحد هذه الحروف يرتفع لسانه. ومع ارتفاعه هذا يعطي للحرف رونقًا خاصًا في النطق كما يعطي جمالًا وقوة وتأثيرًا في الكلمة التي يوجد فيها أحد تلكم الحروف (الجزري. د.ت، ص٢٠٢).

ب – الاستفال: وهو الانخفاض والانحطاط. (الحصري، مصدر سابق، ص٦١٩)، واصطلاحاً: "انخفاض أقصى اللسان عن الحنك العلوي عند النطق بالحرف فينخفض معه الصوت إلى قاع الفم، (شكري، مرجع سابق. ١٤٣٠هـ، ص١٣٠) وحروفه ما عدا حروف الاستعلاء السابقة وقد جمعت في عبارة "انشر حديث علمك سوف تجهز بذا" (نفسه)، وعلى هذا يكون عددها اثنين وعشرين حرفاً. وعندما ينطق القارئ بأغلب هذه الحروف يسفل لسانه، وهذا ما يعطي للحرف خفة وجمالاً خاصاً يختلف عن سابقه الاستعلاء.

ج– القلقلة: ويقال اللقلقة، والقلقلة لغة التحريك والاضطراب. وهي "اضطراب اللسان بالحرف عند النطق به ساكناً حتى تسمع له نبرة قوية" (المرصفي، مرجع سابق، ص٨٤)، وحروفها مجموعة في عبارة "قطب جد"، ويلاحظ أن هذه الحروف فيها صفة الشدة، ومعنى هذا أنها تخرج جافة ينحبس الصوت معها، وعند الوقف عليها لابد من تحريكها حتى تسمع وتخرج كما ينبغي، وعلى هذا فإن القلقلة جاءت لتخفف من غلواء الشدة ليخرج الحرف واضحاً جلياً خاصةً عندما يكون ساكناً.

د– التفشي: الانتشار والانبثاث والاتساع (الحصري، مصدر سابق، ص٧٤). وهو "انتشار الهواء في الفم عند النطق بحرفه وهو الشين". (شكري، مرجع سابق، ص١٣٧)، وإنما وصفت الشين بهذه الصفة؛ لأن الصوت ينتشر عند النطق بها حتى يصطدم بالصفحة الداخلية للأسنان العليا والسفلى. (سويد، أيمن. ١٤٣٢هـ، ص٢٠٢).

٢– علاقة صفات الحروف بالإعجاز القرآني

عني علماؤنا الأقدمون والمتأخرون على حد سواء ببيان الإعجاز القرآني ووجوهه، وجعلوا جل اهتمامهم منصبا على بلاغة الكلمة القرآنية و تركيبها مع سياقها، ولم يعنَ أكثرهم ببيان العلاقة بين حروف الكلمة و معناها فضلًا عن تأثير مخارج وصفات الحروف على معنى الكلمة القرآنية أو عكس ذلك، ومع هذا كله نجد إشارات هنا وهنالك عند المتقدمين والمتأخرين، فالناظر بعين الفحص إلى كتب السابقين يجد إشارات إلى مثل هذا الأمر، وأول ما نجد ذلك عند الرماني (ت٣٨٤هـ) في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" حينما يقول مفرقاً بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وبين قول العرب "القتل أنفى للقتل". "وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة، فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام" (الرماني، ٢٠٠٨م، ص٧٨)، فواضح من العبارة أنه رجح العبارة القرآنية على عبارة العرب لما في الأولى من سهولة المخارج وعذوبتها وعدم الكلفة فيها وفي هذا إشارة جلية لما نحن بصدد الحديث عنه؛ إذ الصفة هي كيفية لخروج الحرف.

وفوق ذلك، فإن الرماني نفسه يضع قاعدة للكلمة البليغة المعجزة فيقول "ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنهما ما هو في الوسائط بين ذلك، والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام" (المرجع السابق، ص٩٦)، فهو هنا يكاد يصرح بأهمية مخارج الحروف وصفاتها في بلاغة الكلمة وإعجازها، ويضع أرضية جيدة لقاعدة يمكن أن يسار عليها، وإن كان ما وضعه لا يخلو من عموم وإجمال إلا أنه يشكر على أوليته في بداية الانطلاق.

أمَّا الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، فقد كان أكثر إشباعاً لهذه الفكرة وأقوى نضوجاً عن سابقه حين يقول:

"ومعنى تاسع وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم، والذي ينقسم إليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها ،فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة ... وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين أحدهما حروف غير شديدة وإلى حروف شديدة ... ومن ذلك الحروف المطبقة وهي أربعة وما سواها منفتحة... وإذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم ترتيب في العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي (ﷺ) رأوا مباني اللسان على هذه الجهة بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التصنيف الذي ذكر؛ دل على أن وقوعها الذي يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لا يجوز إلا من الله عز وجل؛ لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب، وإن كان إنما نبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان فإن كان أصل اللغة توقيفًا، فالأمر في ذلك أبين، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضًا" (الباقلاني، ١٩٩١م، ص٩٥-٩٧).

فالباقلاني كان أكثر وضوحاً من سابقه في إثبات أن اختيار الحروف معجز بحد ذاته، بل جعله وجهاً من وجوه الإعجاز، إلا أنه كسابقه لم يربطه بمعنى كل كلمة على حده، وبلفظ آخر أنه لم يطبق على ما نظر له في العبارة السابقة إلا أنه يؤخذ على الإمام هنا أمران:

أولهما: أن عدد السور التي فيها حروف مقطعة هي تسع وعشرون سورة وليست ثمان وعشرين كما قال. (الزمخشري، ١٣٩٧هـ، ١/ ٢٠).

ثانيهما: أنه صبَّ جل اهتمامه على الحروف المقطعة في بداية بعض السور ولم يذكر الكلمات الأخرى، ولذا فإنا لو تقدمنا خطوات يسيرة بعد الإمام الباقلاني لوجدنا الإمام الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أكثر نضجاً وأوفر شرحاً وأغزر مادةً وإن كان استفاد من سابقه، وقد ظهر ذلك جليًّا في حديثه عن الحروف المجهورة الشديدة والمقلقلة، حين قال: "ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجزاء المعدودة مكثورة بالمذكورة منها فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته" (الزمخشري، المصدر السابق، ص٢١).

على كلِّ حال، فإن هؤلاء الثلاثة يمثلون أغلب المتقدمين، من حيث إن الأول أشار إلى أهمية الحرف في الكلمة، وإن الثاني نص على إعجاز الحرف في الكلمة خاصةً في الحروف المقطعة، وإن الثالث شرح أكثر من سابقيه منبهًا إلى أهمية الحرف عمومًا.

أمَّا المتأخرون، فقد كانوا أدق ذكراً وأكثر تحليلاً وأغزر مثلا، على سبيل المثال، حين تعرَّض الرافعي (ت١٩٣٧م)، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (القمر: ٣٦)، قال: "فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف وأجرِ حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال "لقد" و في الطاء من "بطشتنا "وهذه الفتحات المتتالية وراء الطاء إلى واو "تماروا" مع الفصل بالمد" (الرافعي، ١٣٩٣هـ، ص٢٢٧-٢٢٨). فقد أصاب هنا بدقَّة في قوله "مواضع القلقلة". بل هنا جاء بشيء جديد وهو التأصيل لما ذكره من القواعد النظرية بل أخذ يحلل ويقارن ويوازن بين الكلمات والحروف فيها بل وحركاتها، وهذا ما يجعل للمتأخرين شيئا من الفضل في هذا الأمر.

عالم آخر من المتأخِّرين هو الشيخ محمد عبد الله دراز (ت١٩٥٨م)، ومما جاء عنه من الْتفاتَةٍ في هذا الموضوع في كتابه "النبأ العظيم"، قوله: "فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر وثالث يهمس ورابع يجهر وآخر ينزلق عليه النفس و آخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر" (دراز، ١٤٠٥هـ، ص١٠٣-١٠٤).

فالشيخ دراز هنا يضيف بعداً آخر هو أصل الصفات ألا وهي مخارج الحروف وعلى هذا يقرر أن الكلمة القرآنية دقيقة ومعجزة، وإعجازها يبدأ من إخراج الحرف من مخرجه اللائق به ثم صفاته التي يتصف بها، وعندئذ تكمن الفخامة والرشاقة بكل معانيها ومن هنا يمكن القول إن نقطة البداية كانت عند المتقدمين ثم تطور ذلك إلى أن أصبح واضحاً جلياً عند المتأخرين لكنه لا يزال بحاجة إلى من يظهره ويجليه بحسن عبارة دون إفراط ولا تفريط.

٣- صفات الحروف وأثرها في الإعجاز البياني

لصفات الحروف كلها أثرٌ قويٌّ في الإعجاز القرآني لاسيما البياني منها. وتجدر الإشارة إلى أنَّ تلك الصفات ليست على وتيرة واحدة في التأثير، فتأثير صفتي الاستعلاء والاستفال ليس مثل تأثير صفة البينية، وتأثير القلقلة والتفشي ليس كمثل تأثير صفة اللين وهكذا، ومن جرب وذاق ليس كمن لم يكن كذلك من حيث القراءة والتدبر والعيش في ظلال صفات الحروف، وتتبع تأثير صفات الحروف على كل كلمات القرآن مما تفنى فيه الأعمار، لكن ما لا يدرك جله لا يترك كله؛ لذلك تمَّ الاقتصار على الصِّفات الأربع (الاستعلاء والاستفال والقلقلة والتفشي) وتأثيرها في الإعجاز البياني من خلال نماذج من آي الذكر الحكيم من عدة مواضع متفرقة من المكي والمدني من طوال السور ومئينها ومثانيها ومفصلها.

أ- الإعجاز البياني في صفتي الاستعلاء والاستفال

يتم تأثير صفتي الاستعلاء والاستفال في الإعجاز البياني من خلال وجود حروف كل منهما في الآية القرآنية أو الكلمة ممزوجة ومفرقة، ويمكن استجلاء هذه الحقيقة عبر مثالَين اثنين، على النَّحو الآتي:

المثال الأول: يقول تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، جاءت كلمة "الصَّابِرِينَ" مكونة من عدة أحرف هي الواو المستفلة واللام الشمسية المدغمة والصاد المستعلية والألف التي تتبع ما قبلها والباء المستفلة والراء المستفلة (المرققة) والياء والنون المستفلتين، وما أحلى الانتقال من الواو المرققة إلى الصاد المفخمة تفخيماً في أعلى قمته ثم الانتقال إلى الترقيق فحركة الفم من فتح إلى إطباق ثم فتح ينم عن المعنى الذي يعانيه الصابر أثناء صبره، وما أجمل مجيء الياء في كلمة الصابرين حين أعطى المد فيها ما ينم عن المقاساة التي يعانيها أولئك الصابرون، ثم ما أروع مجيء النون المستفلة ذات الغنة الأصلية التي تشير من طرف خفي إلى أن لذة الصبر عند النتيجة هي راحة حتى من حيث النطق السريع المصاحب لحركة كلها نغمة سرور وفرح، وكل ذلك كانت الإشارة إليه بحرف النون المستفل المغن المفتوح.

تأتي بعد ذلك كلمة "البأساء" وكل حروفها مستفلة مرققة مع تكرار الهمزة مرتين ووجود المد في نهاية الكلمة، وما أحسن وجود السين ذات الصفير في وسط الكلمة حين أعطى إشارة إلى معنى البؤس وأنه شقاء ومحنة، والعجيب في الأمر أن كلمة البأساء كانت حركة الفم فيها واحدة هي الفتح

مراعاة للاستفال وفي هذا إشارة إلى معنى البأس حيث الفقر والشدة؛ لكن مع هذا كله الأمر أهون من لاحقه الضراء حيث المرض والزمانة[1]، ففي الأول يمكن أن تكون حركة لكن مع الثاني الأمر أخطر إذ لا يمكن أن تكون حركة بل قعود و تعب ونصب، وهو ما أشار إليه استعلاء الضاد المفخمة تفخيماً في أعلى المراتب، ثم الراء المفخمة كذلك ففي كلا الكلمتين شقاء وبؤس لكن الأمر أخطر في الثاني.

أمَّا قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فيتبيَّن فيه المعنى الدقيق الذي يكابده الصادق مع نفسه فوجود الصاد المفخمة ثم الدال المستفله المرققة ثم القاف المفخمة ثم الواو المستفلة ، فحركة الفم إطباق ثم انفتاح ثم ارتفاع ثم انفتاح، فهي حركة ثم حركة ضدها ،وكل ذلك يعطي إشارة غير خافية إلى أن صدق أولئك كان فيه مكابدات عدة كما هو الحال حتى مع نطق الكلمة، و لننظر كيف أثرت صفتي الاستعلاء والاستفال على معنى الكلمة القرآنية الدقيق فسبحان من أحسن اختيار كلمات كتابه.

المثال الثاني: يقول تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٩٦ – ٩٨). تتحدث هذه الآية عن أهل النار وما يعانونه من خصام فيما بينهم، وفي كلمة "يَخْتَصِمُونَ" حيث الاختصام بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، ولو نظر فيها من حيث الاستعلاء والاستفال فالياء مستفلة والخاء مستعلية والتاء مستفلة والصاد مستعلية والميم وما بعدها مستفلات، فحركة الفم انفتاح ثم علو ثم انخفاض ثم علو ثم انخفاض، كل هذه الحركات تشير إشارات لطيفة إلى الاختصام المحتدم بين أولئك القوم، وأنه خصام في أعلى قمته حتى أثر ذلك في نطق الكلمة، أفلا يدل ذلك على عظمة من أنزل الكتاب حيث أحسن اختيار ألفاظ كتابه!

ب – الإعجاز البياني في صفة القلقلة

لصفة القلقلة تأثير قوي وفاعل على حروف الكلمة؛ ذلك أنها أتت لتخفف من الشِّدة ولتبرز الحرف المقلقل الذي بدوره يؤثر على المعنى المراد من الكلمة ويمكن التَّدليل على ذلك بمثالين اثنين:

[1] الزمانة: هي كبر السن

المثال الأول: يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ (الأعراف: ٨٦). في هذه الآية بعض من نصائح نبي الله شعيب لقومه، ولننظر إلى الكلمتين اللتين أتت فيهما القلقلة مؤثرة تأثيراً لا غموض فيه فالكلمة الأولى هي "تَقْعُدُوا" والعجيب في الأمر أن هذه القاف المقلقلة جاءت في الوقت نفسه واقعة بين مستفلين وهي مستعلية وقعودهم ذاك منكر من حيث نيته فعله فهو خبث على خبث وقلقلة القاف الساكنة هنا يشير من طرف خفي إلى أن قعودهم ذاك يحرك الأمور عن حقائقها ومضامينه الجديرة بها، كما أن فيه إشارة إلى أمر آخر هو أنهم كانوا يتعبون أنفسهم في الترصد للصد عن سبيل الله، ومع هذا كله فسيدنا شعيب مشفق عليهم دنيا وأُخرى.

أما الكلمة الثانية فهي "وَتَبْغُونَهَا" واستخدمت دون سواها لأن فيها بغياً وشراً، وما أحلى قلقلة الباء في موضعها هنا فإرادتهم الصد عن سبيل الله فيه حركة خطيرة تحول الأمور عن مجالاتها الجديرة بها أضف إلى ذلك أن إرادتهم تلك فيها مشقة عليهم ولن تفيدهم شيئاً فهم يظنون أنفسهم في غير جدوى.

المثال الثاني: يقول تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ (الواقعة: ٣١)، المقطع الكريم الذي فيه هذه الآية الكريمة يتحدث عن جزاء أصحاب اليمين في الجنات التي أعدها الله لهم، وتبدأ الآيات بقوله: ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ (الواقعة: ٢٨ – ٣٠)، ثم تأتي نهاية الآية الكريمة مخالفة لما قبلها في نهاية الحرف، فما سبقها مختوم بالدال الشديدة المقلقلة الخارجة من طرف اللسان، أما الباء هنا فهي تخرج من بين الشفتين وفيها كذلك شدة وقلقلة، واللقلقة هنا أعطت رونقاً عظيماً للكلمة نطقًا ومعنًى حين أشارت إلى كثرة السكب وروعته، وأنه واصل إلى المؤمنين قريب من أفواههم، حتى في الكلمة المنتهية بالباء الخارجة من الفم ففي الباء قرب حسي، وفي القلقلة قرب معنوي، وما أجمل هذا مع ذاك حيث يكونان السعة والدعة المعدة لأولئك العظام، أعني أصحاب اليمين، فنظرة بسيطة إلى كلمة واحدة يعطينا الشيء الكثير.

ج– الإعجاز البياني في صفة التفشي

لصفة التفشي تأثير عجيب على الكلمة القرآنية، فانتشار الهواء في الفم يبرز المعنى المراد من الكلمة، ويمكن إيضاح ذلك بمثالين اثنين على النحو الآتي:

المثال الأول: يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨)، هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن مناسك الحج، والحديث ههنا عن الإفاضة من عرفات وأهمية ذكر الله تعالى عند المشعر الحرام، وما أجمل اختيار لفظة المشعر، حيث الشين الساكنة الواقعة بين متحركين، والمعلوم أن الشين ينتشر فيها الصوت والهواء، وفي هذا إشارة إلى أهمية انتشار حجاج بيت الله الحرام في ذلكم المكان العظيم المعظم، كما لا يفوت القارئ أن هنالك إشارة أخرى دل عليها سكون الشين وهو أهمية المبيت في ذلكم المكان الطاهر المطهر، فالملاحظة أن اختيار كلمة المشعر جاء نوراً على نور معنى ومبنى.

المثال الثاني: يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٠)، جاءت هذه الآية الكريمة ضمن سياق نصيحة سيدنا هود عليه السلام لقومه عاد، والذي يهمنا من الكلمات أكثر هو كلمة " بَطَشْتُمْ " والبطش معناه تناول الشيء بصولة كما يقول الراغب (الراغب الأصفهاني، ١٤١٨هـ، ص٦١). إنَّ هذه الكلمة من حيث حروفها تدل على أمرين اثنين؛ أولهما: الشدة التي يتصفون بها وهذا مشار إليه بالطاء المفخمة، وثانيهما: الانتشار والعموم، فهم منتشرون ويريدون بسبب قوتهم أن يبطشوا بأي أحد يقف في طريقهم، وهذا مشار إليه بالشين المتفشية، وما أجمل نطقها تفخيم ثم استفال، وفي ذلك دلالة على أمر ثالث هو أن صولتهم هي أقوى من انتشارهم رغم وجود ذلك، والأمر الأول هو الأدهى والأَمرّ، والعلم عند الله.

٤– تطبيقات على سورة الانشراح[١]

تعد سورة الانشراح من السور المكية التي نزلت في أوج إذاية قريش للرسول (ﷺ)، وهي تتحدث عن مكانته (ﷺ) ومقامه الرفيع، وأنه في منزلة عليا عند الله، كما تناولت تبشيره بالفرج والنصر، ثم ختمت بتذكيره (ﷺ) بواجب التفرغ لعبادة ربه بعد انتهائه من مهمته شكرا له على ما أنعم وأولى (ابن عاشور، د.ت. ٣/٥٧٤).

١) كان المبحث الأول نظرياً وفي المبحث الثاني تطبيقياً عملياً لكنه لكل صفة على حده لإثبات المدعى أما الأمر ها هنا فهو تطبيق عملي للصفات الأربع مجتمعة على سورة ألم نشرح، والصفات الأربع هي الاستعلاء والاستفال والقلقلة والتفشي فإلى تطبيق صلتها بالإعجاز البياني في سورة ألم نشرح.

تبدأ السورة الكريمة بكلمة "أَلَمْ" همزة الاستفهام التقريري مع لم النافية، وهذه الكلمة وإن كانت واحدة في ظاهر اللفظ إلا أنها كلمتان من حيث المعنى، وعلى كل فالأهمُّ هنا هو أن الحروف الثلاثة جميعها مستفلة مرققة، ويبدأ النطق للكلمة بالحلق وينتهي بالشفتين، وفي هذه إشارة إلى أن الشرح عام وجامع كما في أول كلمة من السورة الكريمة، ولننظر إلى سهولة نطق الميم ذات مخرج الشفتين المصاحبة بالغنة الأصلية ففي هذا إشارة إلى أن اليسر حاصل حتى في النطق، وإن بدأ بالحلق الذي فيه نوع صعوبة لا تخفى فكأن في أول كلمة إشارة إلى أن العسر جالب لليسر لا محالة. أمَّا الكلمة الثانية من السورة الكريمة فهي "نَشْرَحْ" وما أحلى الشين المتفشية الساكنة في محلها هنا وكأنها جاءت موقعة توقيعاً لا يحسن أن يقوم مقامها غيرها، وذلك ظاهر للعيان حيث أعطى التفشي معنى انتشار الانشراح، وبثه مادياً ومعنوياً.

ثم لننتقل إلى كلمة " لك " في تقديمها على معمول الفعل "صدرك" من البلاغة ما لا يخفى، وفوق هذا فهي خفيفة النطق لكون حرفيها مستفلين مفتوحين. إذا انتقلنا إلى كلمة " صدرك" فأول حرف فيها مستعل مفخم منطبق، وبقية حروفها مستفلة مرققة، ومعنى هذا أن النطق فيه فخامة في أوله، ثم رقة في آخره، وفي هذا ما يشير إلى فخامة صدره وأمره (ﷺ)، وما أجمل القلقلة في وسط الكلمة؛ حيث أعطت إشارة تكاد تكون جلية جلاء الشمس وسط النهار إلى أنه (ﷺ) مشروح قلبه مادياً ومعنويًا، وأنه تمت تنقيته من كل عيب وريب.

أمَّا الآية الثانية من السورة الكريمة: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ فالكلمة الأولى "ووضعنا" وفيها واوان واو العطف، وواو الكلمة الأصلية، ثم الضاد المستعلية، ثم العين والنون والألف، وكلها مستفلة مرققة، وما أحلى النطق بالواوين المتتاليتين، ثم الانتقال إلى الضاد المستعلية، ثم النزول بها إلى المستفلات، كل ذلك أشار إشارة بينة إلى معنى الوضع الحقيقي عنه (ﷺ) مما يكدر صفوه ومن الصغائر التي غفرها الله له. تأتي الآية التي بعدها وهي: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ومعنى أنقض أتعب، يقول الراغب: "أي كسره حتى صار له نقيض"،والظهر معروف. (الأصفهاني، مصدر سابق، ٥٠٦). وبتأمُّل حروف "أنقض" و"ظهرك" نجد أن الأولى مكونة من أربعة أحرف الأوليان منها مستفلان، والأخيران مفخمان، لكن استعلاء الثاني أقوى لإطباقه دون الأول أي القاف، أما الكلمة الثانية "ظهرك" فهي مكونة أيضاً من أربعة أحرف؛ لكن الأول والثاني مفخمان والثاني والرابع مستفلان مرققان، وفي نطق الأول إشارة إلى عظمته (ﷺ)، ومن الجدير بالذكر أن علماء الأداء والقراءة نبهوا هنا على وجوب الاحتراس من

إدخال الضاد العربية في الظاء المشالة، وحين يطبق القارئ ذلك يجد نوع صعوبة في النطق، وفي هذا وذاك ما يشير إلى شدة الأمر وخطورته حتى مع النطق في ثنايا الكلام.

يأتي بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وهنا نكتة لطيفة؛ إذ إن كل حروف الآية مستفلة مرققة ما عدا الراء في موضعيها فهي مفخمة، وهي بهذا تعطينا إشارة إلى عظمة تلكم الرفعة بتفخيم رائها وكذا الحال مع ذكره (ﷺ)، فذكره محمود في الأرض والسماء، وهو أمر جليل قد أشير إليه بتفخيم راء ذكرك.

الآيتان السادسة والسابعة مرتبطتان بعضهما ببعض وآخذ بعضهما بحجز بعض ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ تبدأ الآيتان بكلمة "فإن " ذات الغنة الكاملة وفيها إشارة إلى البشارة باليسر حتى من بداية الآية بنطق جميل؛ إذ إن مخرج الغنة من الخيشوم وفيها صوت جميل لذيذ، ثم لننظر إلى قوله "مع العسر يسرا " كل هذه الكلمات مستفلة حروفها إلا أن كلمة "يسرا " الراء فيها مفخمة، وتفخيمها فيه إشارة إلى الانفراج وتفخيم شأن كلمة اليسر، واللافت في الأمر أن كلمة العسر هي مقابلة لكلمة اليسر مرققة الراء، وفي ترقيقها إشارة إلى سرعة زوال العسر وأنه زائل لا محالة، وهذا أمر عجب فالراء في كلمة العسر مرققة والراء في كلمة يسراً مفخمة وهما متضادات، وكذلك من حيث المعنى فسبحان من أتقن اختيار ألفاظ كتابه، وما قيل في الآية الخامسة هو عين ما يقال في الآية السادسة من حيث تحليل صفاتها .

أمَّا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ فالكلمة الأولى "فرغت" مكونة من أربعة أحرف مفخمة الراء والغين ومستفلة مرققة الطرفين، ومعنى هذا أن اللسان يبدأ بالانفتاح ثم يرتفع ثم ينفتح مرة أخرى، وفي هذا إشارة إلى أن الفراغ من الأمر يحتاج إلى جلد وحكمة، ففيه صعوبة حتى في نطق كلمته. أمَّا الكلمة الأخرى "فانصب" فهي مكونة من همزة وصل ونون وصاد وباء مقلقلة، والإخفاء الحقيقي جميل ههنا ففيه إشارة إلى معنى النصب، كما أن الباء المقلقلة تشير من طرف غير خفي إلى أهمية ذلك النصب لدعوته (ﷺ).

وأمَّا الآية الخاتمة للسورة الكريمة: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ فإن في تقديم الجار والمجرور من الاختصاص ما لا يخفى، وفي ترقيق الفاء ثم تفخيم الراء والغين ثم ترقيق الباء المقلقلة الشفوية من

الفخامة وحسن النطق مالا يخفى، ففي ذلك كله إشارة إلى أهمية الرغوب إلى رب الناس الذي فيه نوع صعوبة حتى من نطقه وموقعه في آخر السورة.

وهكذا فإن الناظر إلى كل لفظة بله حرف من سورة الانشراح وغيرها؛ يجد أمرًا عجباً في اختيار تلكم الحروف وإشارتها إلى المعاني المرادة منها، وفي هذا إعجاز وأي إعجاز، فسبحان من أنزل كتابه يتلى أناء الليل وأناء النهار.

خاتمة

للعلماء السَّابقين كالرماني والباقلاني والزمخشري والمتأخرين كالرافعي ومحمد عبدالله دراز بصمات جليلة أشارت إلى أهمية صفات الحروف وعلاقتها بالإعجاز البياني، وبالدراسة التطبيقية على بعض الآيات القرآنية وسورة الانشراح لأهم صفتين من الصفات المتضادة (الاستعلاء والاستفال)، تبيَّن الأثر الفعَّال لهاتين الصِّفتين على الإعجاز البياني في كل الأمثلة، مما أظهر تناغمًا عجيبا وتناسقا مطَّردا بين صفتي الاستعلاء والاستفال ومعاني الكلمات القرآنية. كما أظهرت الدِّراسة الأثر العظيم لصفة القلقلة التي هي من الصِّفات غير المتضادة في بيان المعنى القرآني الدَّقيق، وأدَّت صفة التفشي —من الصِّفات غير المتضادة– معنى الانتشار والانبثاث المعنوي والحسي في جميع الكلمات القرآنية (محل الدِّراسة)، خاصَّةً عند سكون حرف الشين، وبهذا كله يتبيَّنُ الأثر الفعَّال لصفات الحروف في الإعجاز البياني العظيم.

المصادر والمراجع:

REFERENCES:

Aḥmad Shukrī, et al. (1430H/2009). *Al-Munīr fī aḥkām al-tajwīd, Jamiyyah al-Muḥafaẓah alā al-Qur'ān al-Karīm*, 15th. ed.

Al-Aṣfahānī, al-Raghib. (1418H/1998). *Al-Mufradāt fī gharīb al-Qur'ān,* Tahqīq: Muhammad Khalīl Kītānī, Beirūt.

Al-Bāqillānī, Abubakar M. (1411H/1991). *I'jāj al-Quran*, Tahqīq: M. Khafāji, Dār al-Jīl.

Al-Ḥusari, M. Khalīl. (1423H/2002). *Aḥkām al-Qur'ān al-Karīm*, Maktabah al-Sunnah.

Al-Jamakhsharī, Umar. (1397H/1977). *Al-Kashāf an Haqā'iq al-Tanzīl*, Cairo: Dār al-Mus'haf , 2nd. ed.

Al-Jazarī, A. Muhammad. (n.d.). *al-Nashr fī al-Qurā'at al-Ashr,* Tahqīq: Ali Muhammad D, Beirut: Dār al-Kitāb al-Arabi.

Al-Marṣafī, Abdulfatah. (1421H/2001). *Hidāyah al-Qārī ilā Tajwīd Kalām al-Bārī*, Medine: Dār al-Fajr al-Islāmiyyah.

Al-Rāfi', Muṣṭafā S. (1393H/1973). *I'jāz al-Qur'ān wa al-Balāghah al-Nabawiyyah*, Beirūt: Dār al-Kitāb al-Arabi, 9th ed.

Al-Rummanī, Abu al-Ḥasan. (2008). *Al-Nukat fī I'jāz al-Qur'ān.* Tahqīq: Muhammad Khalaf A. Egypt: Dār al-Ma'ārif, 5th. ed.

Al-Ṣābūnī, M. Alī. (1414H/1993). *Ṣafwah al-Tafāsīr,* Beirūt: Muasasat al-Tārikh al-Arabī.

Al-Sīlānī, Ḥabīb ibn M. (1347). *Maghnam al-Sibyān fī Tajwīd al-Furqān.* Cairo: Muḥammad Ali Subaiḥ.

Al-Tūnisī, M. Yalūsha. *Sharh al-Jazariyyah: Al Fawāid al-Muf'himah*, Maktabah al-Ādāb, al-Qāhirah, n.d.

Darāz, M. Abdallah. (1405H/1985). *Al-Naba' al-Aẓīm.* Doha: Dār al-Thaqāfah.

Ibn, A'ashūr, M. (n.d). *al-Tahrīr wa al-Tanwīr min al-Tafsīr*, Tunis: Dār Suhnūn.

Mullah, Ali al-Qārī. (1426H/2006). *Al-Minah al-Fikriyyah fī al-Muqaddimah al-Jazariyyah.* Damas: Dār al-Ghawsānī.

Swaid, Ayman R. (1432H/2011). *Al-Tajwīd al-Mu/awwar,* Damas: Maktabah ibn al-Jazarī, 2nd. ed.